بينه وبين الانسان اتصال . فاعتدال الجو وصفاؤه ورقة الماء وعذوبته وخصب الارض وجمال الربى ونقاء الشمس وبهاؤها . كل هذه علل مادية . تشترك مع غيرها في تكوين الرجل وتنشىء نفسه . بل في الهامه مايعنّ له من الخواطر والاراء . وكذلك ظلم الحكومة وجورها . وجهل الامة وجمودها . وشدة الآداب الموروثة وخشونتها . كل هذه او نقائضها تعمل في تكوين الانسان عمل تلك العلل السابقة . والخطأ كل الخطأ ان ننظر الى الانسان نظرنا الى الشيء المستقل عما قبله وما بعده . ذلك الذي لايتصل بشيء مما حوله . ولا يتأثر بشيء مما سبقه او احاط به . ذلك خطأ . لان الكائن المستقل هذا الاستقلال لاعهد له بهذا العالم .

انما يأتلف هذا العالم من اشياء يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض ... واذا صح هذا كله . فابو العلاء ثمرة من ثمرات عصره . قد عمل في انضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية ... فالمؤرخ الذي لايؤمن بالمذاهب الحديثة . ولا يصطنع في البحث طرائقه الطريفة . ولا يرضى ان يعترف بما بين اجزاء العالم من الاتصال المحتوم . ولا ان يسلم بان الشيء الواحد على صغره وضآلته انما هو الصورة لما اوجده من العلل . ولا يطمئن الى ان الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان . المؤرخ القديم الذي يرفض هذا كله . ولا يميل اليه . ملزم مع ذلك ان يبحث عن حياة الامة الاسلامية . اذا بحث عن حياة ابي العلاء فانه ان لم يفعل ذلك . استحال عليه ان يفهم الرجل او يهتدي من امره الى شيء . »(٥)

من اجل ذلك خصص طه حسين بابا شغل حيزاً كبيراً من الكتاب (نحو ثلثي الكتاب) . درس فيه زمان ابي العلاء ومكانه وشعبه والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في عصره . وقبيلته واسرته . ليرى اثر ذلك كله في شعره وادبه .

المنهج التأثري او الانطباعي :

تعني التأثرية او الانطباعية ان يقوم النقد على وصف الانطباعات والاحاسيس التي تتركها قراءة النص الادبي في نفس الناقد . بدلاً من تفسير النص الادبي في ضوء نظريات علمية . والحكم عليه على وفق قواعد واصول ربما يكون النص بعيداً كل البعد عنها

(٥) تجديد ذكرى ابي العلاء . ص ١٥ ـ ١٧ .

بدأت الانطباعية اولا في ميدان الرسم ففي يوم من عام ١٨٧٢ وقف الرسام الفرنسي كلود مونيه على الهافر وفتح نافذة غرفته فرأى البحر والشجر والطبيعة . فترك ذلك في نفسه أثراً خاصاً نفذ اليها عن طريق حواسه فامسك بالريشة ليرسم ، لا ليرسم البحر والشجر والطبيعة التي رأها بعينيه . وانما ليرسم الاثر الذي تركه مجموع ذلك المنظر في نفسه بظلاله وانعكاساته وما اشاعه في وجدانه من مشاعر واحساسات . رسم هذه اللوحة واطلق عليها اسم (الانطباع) . وبعد عامين أقام مونيه وأخرون معرضاً سمي بمعرض الانطباعيين . وهكذا ظهرت الحركة الانطباعية في الفن ثم انتقلت الى ميدان الادب عندما شرع ادباء في طليعتهم الأخوان كونكور يسعون الى ان يرووا عن طريق اللغة الانطباعات العابرة والظلال الاكثر دقة للاحساس من دون تحليلها عقليا . والاسلوب الانطباعي هو اسلوب فني يضحي بالنحو في سبيل الانطباع ويحذف كل الكلمات التي لالون لها وغير ذات تعبير ، ولايبقي الا الكلمات التي تنتج الاحساسات . أما فيما يخص النقد فقد اقترنت الانطباعية بعلمين فرنسيين هما أناتول فرانس وجيل لمتر .(٦)

شاع المنهج الانطباعي في النقد في اواخر القرن التاسع عشر ، خلال اجواء وظروف ساد فيها رد فعل قوي على المناهج النقدية السياقية (التاريخي والاجتماعي والعلمي) . كان ردّ الفعل يرجع الى عدة عوامل منها ظهور نظرية الفن للفن التي نادت بالعزلة الجمالية وانطواء الفن الجميل على ذاته في الوقت الذي كشف فيه السياقيون عن العلاقات المتبادلة بين العمل الفني واشياء اخرى خارجية . وكثيراً ماطمسوا القيم الجمالية للعمل الفني او تجاهلوها . لهذا انتقلت حركة (الفن للفن) الى الطرف المضاد للنظرية السياقية . فضلاً عن ذلك بدت المناهج السياقية ، او مايبدو انه اشهر فروعها ، في نهاية القرن التاسع عشر ، بدت كأنها اخفقت ، وذلك لانها وضعت تصميمات مفصلة للتفسير (المنشىء) الكامل للفن . غير ان هذه التصميمات ظلت مجرد تصميمات حسب ، اذ لم يبدُ ممكناً تفسير الفن او الفنان على أنهما مجرد نواتج للقوى النفسية والاجتماعية ، ذلك لان العبقرية الفنية لايمكن تفسيرها بالطريقة نفسها التي تفسر بها الجاذبية . وفي الوقت نفسه تأثر اولئك الذين قادوا الثورة على المناهج السياقية بالنظرية الوجدانية تأثراً قوياً . تلك النظرية التي ترى ان الفن انفعال ، كما قال اوسكار وايلد .(٧)

---

(٦) علي جواد الطاهر ، مقدمة في النقد الادبي ، ص ٤١٦ ـ ٤١٧

(٧) جيروم ستولنيتز ، النقد الفني ، ص ٧١٨ ـ ٧١٩

شكّت الانطباعية في جميع القواعد النقدية . ورفضت ان يحكم على الفن والادب بالقواعد والنظريات . ولم ترَ في التاريخ وعلم النفس والعلوم الاخرى مايفيد النقد او الناقد . كما رفضت الوظائف المألوفة للنقد مثل تفسير العمل الفني او تقويمه باصدار الحكم عليه . والنقد الفني ـ كما يرى الانطباعيون ـ ليس له غرض وراء ذاته . يقول اناتول فرانس « ان النقد الموضوعي لاوجود له . مثلما ان الفن الموضوعي لاوجود له . وكل من يخدعون انفسهم فيعتقدون انهم يضعون في اعمالهم اي شيء غير شخصياتهم . إنما هم واقعون في اشدّ الاوهام بطلاناً . فحقيقة الامر هي اننا لانستطيع ابداً ان نخرج عن انفسنا » . والناقد الحقيقي عنده « هو الذي يروي مغامرات روحه بين الاعمال الفنية الكبرى » . وهو يسجل ويصف تلك الافكار والصور والاحوال النفسية والانفعالات التي يثيرها فيه العمل الفني .

أما النقد الذي وجه الى الانطباعية فهو انها لاتصنع حدوداً لما يقوله الناقد . اذ في استطاعته ان يتحدث عن اي شيء وكل شيء . وخروجها عن النطاق الجمالي . فالناقد الانطباعي لايكون له في كثير من الاحيان شأن بالتركيب الباطن للعمل الفني وقيمته . وفي الوقت نفسه تشجع الانطباعية عمداً على الخروج عن الموضوع في العمل المنقود(٨)

في النقد العربي الحديث يمارس هذا المنهج النقدي الادباء الذين يكتبون النقد . والصحفيون . ومن نقادنا الذين مارسوه محمد مندور في بداية حياته النقدية . وتمثل ذلك في كتابه (في الميزان الجديد)
واليك انموذجاً ممّا جاء في الكتاب . وهو نقد قصيدة (أخي) لميخائيل نعيمة « دعنا ننظر في (أخي) قصيدة ميخائيل نعيمة . فعنده سنجد ما نريد كنوزاً لا مثيل لها في لغتنا . كنوزاً تثبت في المقارنة لاروع شعر اوربي .

قصيدة وطنية قيلت في اواخر الحرب الماضية او بعدها . فهي اذن ممّا نسميه ادب الملابسات الذي كثيراً مانتناقش في امكان اعتباره ادباً خالداً اولاً . وفي فنائه بانقضاء ظروفه او بقائه بعدها . بل وفي طبيعة هذا البقاء . اهو على نحو ماتبقى الوثائق التاريخية مغبّرة في دار المحفوظات ام كأدب دائم الحياة . دائم الهز للنفوس :

---

(٨) المرجع نفسه . ص ٧٢٢ .

أخي إن ضجّ بعد الحرب غربي باعماله
وقدّس ذكر من ماتوا وعظّم بطش ابطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

نفس مرسل وموسيقى متصلة . فالمقطوعة وحدة تمهد لخاتمتها . وفي هذا مايشبع النفس . ألا ترى كيف يعدك للصورة التي يدعوك الى مشاركته فيها . اذا ضج الغربي باعماله وقدس موتاه وعظم ابطاله . فلا تهزج للمنتصر . ولا تشمت بالمنهزم لانه لافضل لك في هذا ولا ذاك . وما انت بشيء . وانت احق بان تحزن واجدر بان يخشع قلبك فتركع صامتاً لتبكي موتاك . اي ألفة في الجو . واي قوة في اعداده ؟

« أخي . فانا اذا شريكه في الانسانية . وانا قريب منه وهو قريب مني . ومتى قرب استطاع ان يهمس لانني ساسمعه . وسيشجيني صوته الرقيق القوي المباشر . وهو ينقل اليّ قوة احساسه بفضل قدرته على اختيار اللفظ الذي يستنفد الاحساس « ان ضج غربي باعماله » والضجيج لفظ بالغ القوة لجرس حروفه وقوة ايحائه . وهو يضج « باعماله » لا بالمبالغات الكاذبة . الغربي يقدس ذكر من ماتوا . وهذه الفاظ لينة جميلة مؤثرة غنية . فيها قدسية الدين . فيها نبل الوفاء . فيها جلال الموت . مشاعر شتى تجتمع الى النفس ثروة رائعة . وهو « يعظم بطش ابطاله » .

اي قوة في تتابع هذه الحروف المطبقة ظاء ثم طاء وطاء . أعد هذه الجملة على سمعك ثم انصت الى قوتها التي تملاء فمك كما تملأ الاذن . ثم ان التعظيم غير التحية او التبجيل . والبطش غير الشجاعة او الاقدام . البطش شيء يصعق وهو يدعوني الى « ألاّ اهزج لمن سادوا » والهزج غير الفرح . الهزج غناء . والسيادة لفظ حبيب الى النفس . مثال تهفو اليه . ولهذا فهو يحركها وله فيه اصداء مدوية « ولا تشمت بمن دانا » والشماتة شعور خسيس تركز في هذا اللفظ . لكثرة مروره بنفوسنا جميعاً . لفظ يحمل شحنة من الاحاسيس . وما احقرها شماتة تلك التي نستشعرها لمن دان . نعم مااحقر ان نشمت من جثة هامدة ! بل مالي اضعف من قوة الشاعر وفي قوله « من دانا » مايثيرني فوق ماتثيرني الجثث والاشلاء ؟ لان « من دانا » قد ذل والذل اشق على النفس من الموت . والموت كرامة إن لم يكن بدّ من الهوان . » .